

# لمحات في إعجاز سورة النساء

محاضرة

بقلم

**الدكتور حسن محمد با جودة**

أستاذ الدراسات القرآنية البيانية

بجامعة أمّ القرى ، بمكة المكرمة

أقيمت ضمن البرنامج الصيفي لنادي الطائف الأدبي  
مساء يوم الثلاثاء ٢٨ / ١ / ١٤١٣ هـ الموافق ٧ / ٢٨ / ١٩٩٢ م  
ثم أقيمت ضمن الموسم الثقافي لكلية اللغة العربية  
جامعة أمّ القرى في العام الدراسي ١٨ / ١٩ / ١٤١٩ هـ  
مع بعض الإضافات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد :

هذه المحاضرة وعنوانها : "لمحات في إعجاز سورة النساء" مستلّة من دراسةٍ عنوانها : " تأملات في سورة النساء " يقع مخطوطها في ستمائة وخمسين صفحة ، وهي الدراسة الخامسة عشرة ، في سلسلة الدراسات المتأملّة للقرآن الكريم السّيت عشرة ، التي شملت ست عشرة سورةً كريمةً ، غطّت من القرآن الكريم ثلثه من ناحية ، وغطّت سبعة آلاف من الصفحات من ناحية أخرى. وهذه السور على التّوالي هي : يوسف ، مريم ، يس ، الإسراء ، الفرقان ، العاديات ، النّازعات ، الحاقة ، الرعد ، محمّد صلّى الله عليه وسلّم ، الفاتحة ، الأحزاب ، البقرة ، آل عمران ، النساء ، المائة . وكانت البداية في هذا المشروع في مطلع عام ١٣٩٢ هـ . والله الحمد والمثبة وإذا كان هذا المشروع قد غطّي حتّى الآن ثلث القرآن الكريم ، فإنّ المشروع الآخر ، وهو التّفسير البسيط للقرآن الكريم ، الذي يسير جنباً إلى

جنب مسابقة القرآن الكريم العالمية، قد غطى هو الآخر  
ثلث القرآن الكريم ، فقد طبعت وزارة الحج والأوقاف  
-مشكورة- عشرة أجزاء من هذا التفسير . والله الحمد  
والمنة<sup>(١)</sup> .

وهذه المحاضرة : " لمحات في إعجاز سورة النساء " تتألف  
من شقين .

الشق الأول : ذكر بعض الأمور المتعلقة بالسورة الكريمة.  
والشق الآخر : دراسة متأملة لبعض الاستعمالات  
اللغوية الخاصة بهذه السورة الكريمة أو الشبيهة بالخاصة

وهذه المحاضرة عملت استجابةً لدعوة كريمة من نادي  
الطائف الأدبي للمشاركة في برنامج النادي الصيفي بالاشتراك مع  
لجنة التنشيط السياحي برئاسة معالي أمير الطائف . شكر الله تعالى  
للجميع .

---

(١) هذه المناسبة أقررت أنه تمت بفضل الله تعالى الدراسة المتأملة لتسع عشرة سورة كريمة ،  
غطت زهاء أربعة عشر جزءاً . وكل الدراسات مطبوعة . كما أنه تم بفضل الله تعالى  
دراسة الثلاثين جزءاً من سلسلة التفسير البسيط للقرآن الكريم ، كما تم طبعتها في  
ثلاثين مجلداً .

والله تعالى أسأل أن ينفع بهذا العمل ، وأن يجعله خالصاً  
لوجهه الكريم ، وأن يتفضل بقبوله إنه جلّ وعلا أكرمُ مسئولٍ  
وأعظمُ مأمول .

﴿ ربّنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا . ربّنا ولا تحمل علينا  
إصراً كما حملته على الذين من قبلنا . ربّنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا  
به . واعف عنا واغفر لنا وارحمنا . أنت مولانا فانصرنا على القوم  
الكافرين ﴾ ﴿ سبحان ربّ العزّة عمّا يصفون . وسلامٌ على  
المرسلين . والحمد لله ربّ العالمين ﴾ وصلى الله وسلّم على سيّدنا  
محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين . والحمد لله ربّ العالمين .

كتبه الفقير إلى عفو ربّه  
د. حسن محمّد باجودة  
أستاذ الدراسات القرآنيّة البيانيّة  
بجامعة أمّ القرى بمكّة المكرّمة  
مكّة المكرّمة

صبيحة يوم الثلاثاء ٢٨ / ١ / ١٤١٣ هـ  
الموافق ٢٨ / ٧ / ١٩٩٢ م

## الشّق الأوّل

هذه بعض الأمور المتعلّقة بالسّورة الكريمة .

١- سورة النّساء من المدنيّ من القرآن الذي نزل بعد هجرة النّبّيّ صلّى الله عليه وسلّم إلى المدينة المنوّرة .

٢- أطول سور القرآن الكريم سورة البقرة المدنيّة ، ثمّ سورة النّساء .

٣- ارتبطت الأحكام بالمدنيّ من القرآن في العادة ، وقد اشتملت سورة النّساء على الكثير من الأحكام . وقد تعلّقت تلك الأحكام في مجموعها بالضعفاء بعامة ، النّساء بخاصّة . وقد تبين أنّ حديث كلّ من سورة البقرة وسورة النّساء مستفيضٌ عن النّساء . وإنّ كلّ ذلك من مظاهر عناية الإسلام الفائقة بالنّساء شقائق الرّجال .

٤- سورة النّساء هي الرّابعة في النّصف الأوّل من المصحف الشريف ، وسورة الحجّ هي الرّابعة في النّصف الآخر من المصحف الشريف . وإنّ كلّاً منهما تبدأ بالأمر بتقوى الله تعالى ، هذا إلى حديث الأولى عن المبدأ ، وحديث الأخرى عن المعاد . فالمتقدّمة تتحدّث عن المتقدّم ، والمتأخّرة تتحدّث عن المتأخّر . ابتدأت سورة النّساء بالقول : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ

نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ  
الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿٥﴾ **وابتدأت سورة  
الحجّ بالقول :** ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾

**٥- تشمل السورة الكريمة على آيات المواريث الثلاث . الآيتان  
الكرمتان الحادية عشرة والثانية عشرة . قال تعالى :** ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ  
فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا  
تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا  
تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ  
إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا  
تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةٌ مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا . وَلَكُمْ  
نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُنْ لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا  
تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَتُمْ إِن لَّمْ يَكُنْ لَّكُمْ  
وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكَتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ  
دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورِثُ كِلَاكُمَا أَوْ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتُ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا  
السُّدُسُ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى  
بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرِ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ خَلِيمٌ ﴿٦﴾ **والآية الكريمة  
الثالثة في المواريث هي الآية الكريمة السادسة والسبعون بعد المائة  
، أي آخر سورة النساء . قال تعالى :** ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي

الْكَالِةِ إِنْ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا  
إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً  
رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ  
شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿

وبشأن آيات المواريث الثلاث هذه يقول ابن تيمية ، رحمه  
الله تعالى رحمةً واسعة<sup>(١)</sup> : " فَإِنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ فِي الْفَرَائِضِ ثَلَاثَ آيَاتٍ  
مَفْصَّلَةٍ . ذَكَرَ فِي الْأُولَى الْأَصُولَ وَالْفُرُوعَ . وَذَكَرَ فِي الثَّانِيَةِ  
الْحَاشِيَةَ الَّتِي تَرْتِ بِالْفَرَضِ كَالزَّوْجِينِ وَوَلَدِ الْأُمِّ . وَفِي الثَّلَاثَةِ  
الْحَاشِيَةَ الْوَارِثَةَ بِالتَّعْصِيبِ ، وَهِيَ الْأَخُوَّةُ لِأَبَوَيْنِ أَوْ لِأَبٍ " ونحن  
في غِنَى عَنِ الْقَوْلِ إِنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ الْكَرِيمَاتِ الثَّلَاثِ تَشْتَمِلُ عَلَى  
عِلْمِ الْمَوَارِيثِ أَوْ الْفَرَائِضِ ، أَي عِلْمِ الْحِسَابِ فِي فِرْعٍ مِنْ

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية ١٣ / ٣٤٣ .

أدق فروعِهِ . ومَعْرُوفٌ أَنَّ عِلْمَ الْحِسَابِ جَافٌ بِطَبْعِهِ ، فَكَيْفَ إِذَا  
كَانَ يَعْضُ عَلِمًا مِنْ أَدَقِّ الْعُلُومِ وَأَصْعَبِهَا . وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّ آيَاتِ  
الْمَوَارِيثِ تَسِيلُ دَقَّةً وَعَذُوبَةً . وَكَمَا أَرْضَتْ الْآيَاتِ الْكَرِيمَاتِ  
الْعَقْلَ بِفُصُوصِ مَعَانِيهَا ، شَأْنَهَا فِي ذَلِكَ شَأْنُ سَائِرِ آيِ الذِّكْرِ



الحكيم ، هي كذلك ، أشبعت كلّ نفسٍ بتدفّق تلك المعاني وانسيابها ، وأطربت كلّ أذنٍ بجميل جرسها ، ولطيف وقعها . فسبحان الله تعالى القادر على كلّ شيء ، الذي لا يعجزه شيءٌ في الأرض ولا في السّماء .

وبشأن الآية الكريمة هي تشتمل في القول : ﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ ﴾ على الوصيّة الوحيدة في القرآن الكريم للآباء في حقّ الأبناء والبنات . إنّ عليهم أن يتعاملوا مع المال الذي آتاهم الله تعالى إيّاه وجعلهم مستخلفين فيه كما أمرهم الله تعالى وكما بيّنته آيات الموارث وفصلته سنّة المصطفى صلى الله وسلّم . إنّ الله تعالى قد أعطى كلّ ذي حقّ حقّه فلا يحقّ للعباد أن يظلموا بمحاباة بعض الورثة على حساب آخرين .

وبشأن الإخوة لأّم ، الذين ذكّرتهم الآية الثانية من آيات الموارث الثّلاث الكريّمات ، يقول ابن كثير ، رحمه الله تعالى رحمةً

واسعة<sup>(١)</sup> : " وإخوة الأّم يخالفون بقيّة الورثة من وجوه ، أحدها : أنّهم يرثون من أدلوا به وهي الأّم . والثّاني : أنّ ذكورهم وإنّاتهم في الميراث سواء . والثّالث : لا يرثون إلّا إن كان ميّتهم يورث كلاله

، فلا يرثون مع أب ولا جدّ ولا ولد ولا ولد ابن . الرّابع أنّهم لا يزدادون على الثّلاث وإن كثر ذكورهم وإناثهم " والكلالة مشتقّةٌ من الإكليل ، وهو الذي يحيط بالرّأس من جوانبه. والمراد هنا من يرثه من حواشيه لا أصوله ولا فروعه، كما رَوَى الشّعبيّ عن أبي بكر الصّدّيق أنّه سئل عن الكلالة فقال: أقول فيها برأي ، فإن يكن صواباً فمن الله ، وإن يكن خطأً فمني ومن الشّيطان ، والله ورسوله بريئان منه : الكلالة من لا ولد له ولا والد . فلمّا ولي عمر قال : إنّني لأستحي أن أخالف أبا بكرٍ في رأيٍ رآه<sup>(١)</sup>

٦- استعملت سورة النّساء المدنيّة الكريمة في مجال الكيل والوزن ما له علاقةٌ بالنّواة ، وهي جزءٌ من النّخلة . والمعروف

(١) تفسير ابن كثير ١ / ٤٦٠ .

(٢) تفسير ابن كثير ١ / ٤٦٠ وتفسير الطّبري ٤ / ١٩١ .

أن المدينة المنورة مشهورة بزراعة النخيل . جاء في مجال الكيل لفظ التّقيير . والتّقيير عبارة عن النقطة الصّغيرة في وسط ظهر النّواة ، والنّكتة والنقرة التي في وسط الظّهر<sup>(١)</sup> قال تعالى<sup>(٢)</sup> ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجَنَّةِ وَالطَّاعُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا . أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن بَجِدَ لَهُ نَصِيرًا . أَمْ هُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا . أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا . فَمِنْهُمْ مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَّنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴾ والمعروف أن النقرة في ظهر النّواة لا تتسع لشيء في مجال الكيل . وجاء في مجال الوزن لفظ الفتييل ، عن ابن عبّاس : الفتييل الّذي في بطن النّواة<sup>(٣)</sup> وفي شقّها<sup>(٤)</sup> مفتولا<sup>(٥)</sup> قال تعالى<sup>(٦)</sup> : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾

(١) انظر معجم مقاييس اللغة "نقر" ٥ / ٤٦٩ وتفسير الطبري ٥ / ٨٦ و ٨٧ وتفسير ابن كثير ١ / ٥١٣ .

(٢) الآيات ٥١ - ٥٥ . وانظر الآية الكريمة ١٢٤ من السّورة الكريمة .

(٣) تفسير الطبري ٥ / ٨٢ .

(٤) تفسير ابن كثير ١ / ٥١٢ .

(٥) تفسير الطبري ٥ / ٨٣ .

(٦) سورة النساء ٤٩ .

وقال تعالى (١) ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ والمعروف أن الشيء المفتول في وسط النواة لا ثقل له في مجال الوزن . ويلحق بالفتيل في مجال انعدام الوزن القطمير ، بمعنى القشرة الدقيقة التي تغطي النواة. جاء في سورة فاطر (٢) قوله تعالى : ﴿ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ﴾

٧- في السورة الكريمة العديد من الأحكام المتعلقة بالنساء على جهة الخصوص ، والتي يوطأ لها بالخوف الذي يهيب حُسن قبولها. جاء في الآية الكريمة الثالثة القول : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ إِيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أُذُنِي أَلَّا تَعُولُوا ﴾

(١) سورة النساء ٧٧ .

(٢) الآية ١٣ .

إنّ الآية الكريمة السابقة عُنيت عنايةً كبيرةً بأموال اليتامى ذكوراً وإناثاً فأمرت الأوصياء بأن يعطوا اليتامى أموالهم، ونهتهم أن يتبدّلوا خبيث الأموال بطيّب الأموال ، الحرام من أموال اليتامى الكثير الجيّد ، بالحلال من أموال الأولياء القليل الرديّ ، ونهتهم عن ضمّ أموال اليتامى إلى أموالهم . وبعد العناية بالأموال جاءت عناية الآية الكريمة الثالثة باليتيمات اللاتي يرغب الأوصياء في الزّواج بمنّ لجمالهنّ ، فعليهنّ أن يعطوهن مهر المثل، وألاّ يظلموهنّ وألاّ يخسوهنّ حقهنّ . فإن خاف الأوصياء ألاّ يعدلوا في اليتامى فإنّ في استطاعتهم أن يتجاوزوهنّ إلى غيرهنّ وأن ينكحوا ما طاب لهم من النّساء اثنتين اثنتين ، أو ثلاثاً ثلاثاً ، أو أربعاً أربعاً . فإن خفتنّ ألاّ تعدلوا فانكحوا واحدة<sup>(١)</sup> أو ما ملكت أيماكنكم من الجوّاري السّراري فإنّه لا يجب قسّم بينهنّ ولكنّ يستحبّ ، فمن فعل فحسن ومن لا فلا حرج<sup>(٢)</sup> ومن البين أنّ الإذن بالزّواج حتّى أربع نسوة جاء بين يديه المهيبى له أو

(١) معاني القرآن للفراء ٢٥٥/١ والبحر المحيط ١٦٣/٣ وتفسير القرطبي ١٥٩٠

وتفسير ابن عطية ٤٩٢/٣ .

(٢) تفسير ابن كثير ٤٥١/١ .

الملطّف لوقعه من خوف ظلم اليتيمات : ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى﴾ . هذا إلى كون العدل أو القسط قد جاء التنبية إليه ثلاث مرّات . حين الخوف من عدم العدل مع اليتامى ، وحين الخوف من عدم العدل بين الزوجات ، وفي القول : "ذلك أدنى ألاّ تعولوا" والمعنى ذلك أدنى ألاّ تجوروا<sup>(١)</sup> وأقربُ أن تعدلوا .

وفي الآيتين الكريمتين الرّابعة والثلاثين والخامسة والثلاثين  
نبيّن معنى الخوف بين يدي الحكم في كلّ من الآيتين الكريمتين .  
في الآية الكريمة الأولى يجيء خوف الأزواج من نشوز الزوجات  
وتعالينّ عليهم ، وفي الآية الكريمة الأخرى يجيء خوف الأولياء  
أو القضاة أو الولاة من تفاقم الخلاف بين الزوجين . وهذه ابتداءً  
الآية الكريمة الرّابعة والثلاثون . قال تعالى : ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى  
النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ  
قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ  
وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ  
اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا﴾ ومعنى الآية الكريمة: الرجال قوامون على  
النساء، ولأزواج حـ

(١) تفسير ابن كثير ١ / ٤٥١ وتفسير الطبري ٤ / ١٦٠ والبحر المحيط ٣ / ١٦٥ وتفسير القرطبي ١٥٩٠ .

القِوامة على الزّوجات ، بما فضّل الله تعالى بعضَ الجنسين على البعض الآخر . وممّا فضّل الله تعالى به الزّوج أو الرّجل القوّة الجُثمانية والقدرّة على التّحكّم في العواطف . وممّا فضّل الله تعالى به الزّوجة أو الأنثى قوّة العاطفة وفرطُ الحنان . ما أحوج البيت من الدّاخل للعطف والحنان ، وإنّ حظّ الزّوجة من ذلك هو الموفور . وما أحوج البيت للقِوامة وخارج البيت للقيادة ، وما أخلق الرّجل أو الزّوج للقيام بهذه المهمّة، بسبب قدرته الجُثمانية، وبسبب النّفقة المكلف بها الزّوج على زوجته وعلى بيته . وإنّ النّسوة الصّالحات الطّائعات لله تعالى قانتات طائعات لأزواجهنّ ، حافظات للغيب من فرجٍ ومالٍ للزّوج وقول وما إلى ذلك ، بحفظ الله تعالى ذلك ، وأمّرهنّ به . وائتماننّ عليه .

ويتحوّل الحديث إلى الأزواج الذين لهم حقّ القِوامة على الزّوجات وعلى البيت ، ويكون الحديث عن الأزواج من زاوية عواطفهم الجياشة هذه المرّة ، بعد الحديث عن الأزواج من زاوية القِوامة واستعمالهم للعقول وتحكمهم في العواطف . إنّ الحديث هنا عن الأزواج الذين يخافون نشوز الزّوجات وتعالينّ عليهم ، وإنّ الآية الكريمة تستعمل جملة " تخافون " ذات العلاقة بالخوف ، وليس أيّ جملةٍ أخرى لا تؤدّي دورها ولا تشهد مشهدها .

ويلاحظ أنه يجيء بين يدي جملة : "تخافون" الحديث عن النساء الصالحات القانتات الحافظات للغيب ، أي الحديث عن النساء من زاوية عواطفهن الجياشة ، كما يلاحظ أنه يجيء من خلف جملة : "تخافون نشوزهن" جملة : "فعظوهن" ابتداءً ، ذات العلاقة بالوعظ والضرب على وتر العاطفة . وهكذا يتبين أن الجو مشحون بالعواطف ، وأن حظ الزوج أو الرجل موفور منه، بحيث إنه يخاف من نشوز زوجته وتعاليتها عليه ، بسبب ما قد يؤدي إليه هذا النشوز - لا سمح الله - من هدم بيت الزوجية . ومن البين أن النص على خوف الأزواج يجيء بين يدي أحكام وطرق لمعالجة الزوج زوجته التي يخاف نشوزها ، من وعظ وهجر في المضجع وضرب بالسواك<sup>(١)</sup> وفرشاة الأسنان وما في حكمهما، جرس إنذار بأن البيت يوشك أن ينهدم بالطلاق ، وفي ذلك ضياع الأطفال أو جوعهم لا سمح الله . قال تعالى : ﴿وَاللَّائِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا﴾

وهذه هي الآية الكريمة الخامسة والثلاثون . قال تعالى :

(١) تفسير القرطبي ١٧٤٣ .



﴿وَأِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَبِيرًا﴾ والمقصود بالقول : "وإن خفتم شقاق بينهما" وإن خفتم أيها الأولياء أو أيها القضاة ، أو أيها الولاة ، شقاق بين الزوجين والخلاف بينهما ، بمعنى النشوز من الزوجة وتركها حق الله تعالى الذي يلزمها لزوجها ، وبمعنى ترك الزوج إمساك زوجته بالمعروف أو تسريحها بإحسان<sup>(١)</sup> ويلاحظ مدى المشاركة الوجدانية للزوجين لدرجة الخوف . إن المطلوب في هذه الحال أن يُبعث حكمان ، أحدهما من قبل الزوج وآخرهما من قبل الزوجة . إن يرد الزوجان إصلاحاً يوفِّق الله سبحانه وتعالى بينهما بإذنه . إن الله سبحانه وتعالى كان عليماً بكل شيء ، ومن ذلك ظواهر الأمور خبيراً بكل شيء ، ومن ذلك بواطن الأمور .

---

(١) انظر مثلاً تفسير الطبري ٥ / ٤٥ .

## الشق الآخر

الشق الآخر من الدراسة يتناول بعض الاستعمالات اللغوية الخاصة بهذه السورة الكريمة أو الشبيهة بالخاصة ، وتشمل الدراسة القول على لسان اليهود خطاباً للمصطفى صلى الله عليه وسلم في الآية الكريمة السادسة والأربعين : ﴿وَاسْمِعْ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعِنَا ﴾ قال تعالى : ﴿مَنْ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمِعْ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعِنَا لَيَّا بِالسِّنِّتِهِمْ وَطَعْنَا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمِعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

كما تشمل الدراسة لفظة "مراعماً" في الآية الكريمة تمام المائة . قال تعالى : ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾

كما تشمل الدراسة أخيراً جملة "يستنكف" في الآية الكريمة الثانية والسبعين بعد المائة . قال تعالى : ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ

فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿﴾ علماً بأنّ الجملة ذاتها تجيء في الآية الكريمة التالية أيضاً . ومعنى الجملة في الآيتين الكريمتين واحد .

﴿ وَاسْمِعْ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعِنَا ﴾

بشأن هذا القول على لسان اليهود ، عليهم لعائن الله تعالى ، خطاباً للمصطفى صلى الله عليه وسلم ، نودّ أن نذكر الآيات الكريمات الثلاث في الموضوع ذاته قال تعالى (١) : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ

أُوتُوا نَصِيحًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتُرُونَ الضَّلَالََةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا . مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهَا وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمِعْ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِاللِّسَانِ لِئَلَّا يَسْمَعُوا فِي الدِّينِ وَلِيُوا لِنَفْسِهِمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمِعْ وَانظُرْنَا لَكَمَانَ خَيْرًا هَئِيمًا وَأَقْيَوْمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

وأول ما نودّ الإشارة إليه هو أنّ آية سورة النساء التي جاء فيها القول على لسان اليهود خطاباً للمصطفى صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَاسْمِعْ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعِنَا ﴾ تعتبر تبييناً وتوضيحاً

(١) سورة النساء ٤٤ - ٤٦ .

للآية الكريمة الرابعة بعد المائة من سورة البقرة المدنية . قال تعالى:  
﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ  
أَلِيمٌ ﴾

جاء في سبب نزول الآية الكريمة من سورة البقرة<sup>(١)</sup> : " قال  
ابن عباس : كان المسلمون يقولون للنبي صلى الله عليه وسلم :  
راعنا على جهة الطلب والرغبة ، من المراعاة ، أي التفت إلينا .  
وكان هذا بلسان اليهود سباً ، أي اسم لا سمعت . فاغتموها  
وقالوا : كنا نسبه سراً فالآن نسبه جهراً . فكانوا يخاطبون بها النبي  
صلى الله عليه ويضحكون فيما بينهم . فسمعها سعد بن معاذ  
وكان يعرف لغتهم فقال لليهود : عليكم لعنة الله . لئن سمعتها من رجل  
منكم يقولها للنبي صلى الله عليه وسلم لأضربن عنقه . فقالوا :  
أولستم تقولونها؟ فنزلت الآية ونهوا عنها لئلا تفتدي بها اليهود في  
اللفظ وتقصد المعنى الفاسد"

وهكذا يتبين أن الآية الكريمة السادسة والأربعين من سورة  
النساء تعتبر تبيناً وتفسيراً للآية الكريمة الرابعة بعد المائة من سورة  
البقرة . فما معنى آية سورة النساء ؟ إن الآية الكريمة

(١) تفسير القرطبي ٤٤٧ وانظر أسباب النزول للواحدي التيسابوري ٦٩ .

تقرّر أنّ من يهود المدينة المنورة وما حولها آنذاك ، أقواماً يحرفون كلام الله تعالى في التّوراة الموحى بها إلى موسى عليه السّلام عن مواضعه ، ويصرفونه عن وجهه ، وينحرفون به عن صحيح معناه ، ويفهمون منه غير المراد به ، ويكتمون صحيح معناه ، بل ويحرفون كثيراً من الكتاب على كثيرٍ من الخاصّة فكيف بالعامّة . وإلى هذه المعاني أشارت الآية الكريمة الخامسة عشرة من سورة المائدة . قال تعالى : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴾  
وَمَا حَرَفَهُ الْيَهُودُ مِنَ التّوراة نعتُ محمّد بن عبد الله صلّى الله عليه وسلّم النبيّ الأميّ الذي يجده اليهود مكتوباً عندهم في التّوراة . ووراء ذلك فإنّ هؤلاء الأقوام من اليهود يقولون للمصطفى صلّى الله عليه وسلّم الذي دعاهم إلى الإسلام وأسمعهم كلام الله تعالى : سمعنا قولك وعصينا أمرك ﴿ وَاسْمِعْ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعِدًا ﴾  
﴿ وتقرّر الآية الكريمة أنّهم بهذا القول يلوون بألسنتهم القول عن مألوف معناه أو يلوون المعنى المألوف للكلام إلى غير المألوف وغير المستقيم بقصد الطّعن في الدّين عن طريق إيذاء المصطفى صلّى الله عليه وسلّم بألسنتهم وبأقوالهم .

وتضع الآية الكريمة البدائل الصحيحة لأقوال اليهود المنحرفة . إنهم بدلاً من القول : ﴿ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ﴾ عليهم أن يقولوا : ﴿ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ وبدلاً من القول : ﴿ وَاسْمَعِ غَيْرِ مُسْمَعٍ ﴾ عليهم أن يقولوا : ﴿ وَاسْمَعِ ﴾ وبدلاً من القول : ﴿ وَرَاعِنَا ﴾ عليهم أن يقولوا : ﴿ وَانظُرْنَا ﴾

إن هذا البديل لو قالوه لكان خيراً لهم وأقوم سبيلاً ولكنهم لعنهم جلّ وعلا بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً .

فما معنى القول : ﴿ وَاسْمَعِ غَيْرِ مُسْمَعٍ ﴾ ؟ الذي طلب من اليهود أن يكتفوا منه بالقول : ﴿ وَاسْمَعِ ﴾ .

حينما نستشير كتب التفسير ومعاجم اللغة نتبين أن هذا القول : ﴿ وَاسْمَعِ غَيْرِ مُسْمَعٍ ﴾ من باب لحن القول الذي يُعرف به كلُّ من اليهود والمنافقين إخوان اليهود . ومعنى لحن القول هنا الميلُ بالقول عن مالوف معناه وصحيح ظاهره إلى خبيث معناه وفسادِ باطنه . إنَّ للقول : ﴿ وَاسْمَعِ غَيْرِ مُسْمَعٍ ﴾ معنيين اثنين ، أحدهما طيبٌ ظاهرٌ قريب لا يريدُه اليهود ، وهذا المعنى الطيبُ الظاهرُ القريب هو : واسمع أيها الرسول الكريم غير مُسْمَعٍ شيئاً يؤذيك ويسوؤك لرفيع منزلتك وجلال مقامك . وآخرهما خبيثٌ باطنٌ بعيدٌ يريدُه اليهود عليهم لعائن الله تعالى المتتابعة إلى يوم

الدِّينَ : واسمع غير مُسْمَعٍ شيئاً أساساً ، ولا سمعت شيئاً أصلاً ،  
لكون الموتِ قد سبق إليك ، والمنيّةِ قد اخترمتك . إنّ البديل  
الصّحيح لهذا القول الخبيث هو القول : ﴿ اسْمَعْ ﴾ والمعنى : أيّها  
الرّسول الكريم اسمع قولنا وأصغ لنا .  
وما معنى القول : " وراعنا " ؟

حينما نستشير كتب التّفسير ومعاجم اللّغة نتبيّن أنّ هذا  
القول : ﴿ وَرَاعِنَا ﴾ من باب لحن القول كذلك . إنّ للقول : ﴿  
وَرَاعِنَا ﴾ معنيين اثنين ، أحدهما طيّبٌ ظاهرٌ قريبٌ لا يريد  
اليهود . وهذا المعنى الطيّب الظاهر القريب هو المعنى الذي يريد  
المؤمنون بقولهم للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم : ﴿ وَرَاعِنَا ﴾ على نحو  
ما يُفهم من آية سورة البقرة . وقد جاء في تفسير هذه الجملة في  
لسان العرب على سبيل المثال<sup>(١)</sup> القول : " وأرعى سمعك وراعني  
سمعك أي استمع إليّ . وأرعى إليه : استمع . وأرعى فلاناً سمعي  
إذا استمعت إلى ما يقول وأصغيت إليه "

وآخرهما خبيثٌ باطنٌ بعيدٌ يريد اليهود عليهم لعائن الله تعالى  
المتابعة إلى يوم الدِّين . يقول في هذا المعنى الرّاجب الأصفهاني<sup>(٢)</sup>

(١) لسان العرب : "رعى"

(٢) المفردات في غريب القرآن : "رعن" ١٩٨ .

"قال تعالى : لا تقولوا راعنا . وراعنا لِيَاً بألسنتهم وطعناً في الدين . كان ذلك قولاً يقولونه للنبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على سبيل التّهكّم يقصدون به رَمِيَهُ بِالرُّعُونَةِ ويوهمون أنّهم يقولون راعنا أي احفظنا ، مِنْ قَوْلِهِمْ : رَعْنُ الرَّجُلِ يَرَعُنُ رَعْنًا فَهُوَ رَعِنٌ وَأَرَعَنُ وامرأة رعناء . وتسميته بذلك لميلٍ فيه تشبيهاً بالرَّعْنِ أي أنف الجبل لما فيه من الميل" ويقال : جيشٌ أرعن : إذا كانت له فضولٌ كرعون الجبال<sup>(١)</sup> والجيش الأرعن هو المضطرب لكثرتِه<sup>(٢)</sup> ويقول ابن منظور<sup>(٣)</sup> : "الأرعن : الأهوج في منطقهِ المسترخي . والرَّعُونَةُ : الحُمُقُ والاسترخاء . رجلٌ أرعن وامرأة رعناء بَيْنَا الرَّعُونَةَ والرَّعِنِ أيضاً . وما أرعَنَهُ ، وقد رَعِنَ بالضَّمِّ يرَعُنُ رُعُونَةً ورَعَنًا . وقولُهُ تعالى : ﴿ لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا ﴾ قيل : هي كلمةٌ كانوا يذهبون بها إلى سبِّ النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، اشتقُّوه من الرَّعُونَةِ . قال ثعلب : إِنَّمَا نَهَى اللهُ تَعَالَى عَنْ ذَلِكَ لِأَنَّ الْيَهُودَ كَانَتْ تَقُولُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : راعنا أو راعونا ، وهو من كلامهم سببٌ . فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى :

(١) معجم مقاييس اللّغة لابن فارس : "رعن" ٢ / ٤٠٧ .

(٢) لسان العرب : "رعن" .

(٣) لسان العرب : "رعن" .



﴿ لَا تَقُولُوا رَاعِنَا ﴾ وقولوا مكانها: ﴿ انظُرْنَا ﴾ . قال ابن سيده :  
وعندي أنّ في لغة اليهود راعونا على هذه الصيغة ، يريدون  
الرّعونة أو الأرعن " وجاء في لسان العرب<sup>(١)</sup> " .... قراءة أيّ بن  
كعب : لا تقولوا راعونا ..... وفي مصحف ابن مسعود رضي الله عنه :  
راعونا ..... " ويقول أبو حيان<sup>(٢)</sup> : " وقيل : كانت لليهود كلمة  
عبرانية أو سريانية يتسابون بها وهي راعينا ، فلما سمعوا بقول المؤمنين راعنا  
اقترضوه وخاطبوا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يعنون  
تلك المسبة ، فنهى المؤمنون عنها وأمروا بما هو في معناها "  
مما سبق يتبين أنّ اليهود عليهم لعائن الله تعالى المتابعة إلى  
يوم الدين يجيء على لسانهم لياً بالسنتهم وطعناً في الدين القول :  
﴿ رَاعِنَا ﴾ وهم يريدون معناها السيئ ، من اتّهامه عليه الصلاة  
والسلام بالحمق والجنون . إنهم حينما يخافون المؤمنين الذين  
يعرفون لغتهم أو طرائقهم في التعبير وحنّ القول عندهم ، ينطقون  
الجملة نطقاً صحيحاً ولكنهم يريدون معناها السيئ . أمّا حينما  
يطمئنون إلى أنّ المؤمنين الحاضرين غير ملّمين بطرائقهم في التعبير  
فإنهم يضمّون إلى التواء نفوسهم التواء ألسنتهم . وهذا الالتواء

(١) "رعى" والحديث هنا عن آية سورة البقرة .

(٢) البحر المحيط / ١ / ٣٣٩ .

في الألسنة ، من أجل أن يوافق نطقهم للكلمة ذات المعنيين  
الاثنين السيئ والحسن معاً ، نطق لفظة أخرى ذات معنى سيئ  
واحد فقط . وهذه اللفظة التي يتم التحوّل إليها إما أن تكون  
عربيّة وإما أن تكون عبريّة ، والمعروف أنّ الشّبّه كبيرٌ بين العربيّة  
والعبريّة لانتمائهما معاً في الأساس إلى لغةٍ أصليّةٍ واحدةٍ ، هي  
اللغة السّاميّة الأمّ .

وبشأن القولين : ﴿ لِيَا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنَا فِي الدِّينِ ﴾ يصحّ أن  
يعودا إلى القولين : ﴿ وَاسْمِعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا ﴾ لأنّ في القولين لياً  
بالألسنة وطعناً في الدين . وإما أن يعود المتقدّم : ﴿ لِيَا بِأَلْسِنَتِهِمْ ﴾  
إلى المتقدّم : "واسمع غير مُسْمَعٍ" باعتباره دعاءً على المصطفى  
صلّى الله عليه وسلّم بالهلاك ، وأن يعود المتأخّر : ﴿ وَطَعْنَا فِي الدِّينِ ﴾  
إلى المتأخّر : ﴿ وَرَاعِنَا ﴾ باعتباره طعناً في المصطفى صلّى الله  
عليه وسلّم واتّهاماً له عليه الصلّاة والسّلام بالحقّق والجنون . وإنّ في  
الطّعن في الرّسول صلّى الله عليه وسلّم طعناً في دين الإسلام الذي  
أكمله الله تعالى ورضيه لنا وأتمّ به النّعمة علينا .

### لفظة : «مراغم»

جاءت هذه اللفظة في الآية الكريمة تمام المائة من سورة النساء . قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾

### سبب النزول :

"قال ابن عباس في رواية عطاء : كان عبد الرحمن بن عوف يخبر أهل مكة بما ينزل فيهم من القرآن ، فكتب الآية التي نزلت<sup>(١)</sup> : إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُم الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ ، فَلَمَّا قَرَأَهَا الْمُسْلِمُونَ قَالَ حَبِيبُ بْنُ ضَمْرَةَ اللَّيْثِيُّ لَبْنِيهِ<sup>(٢)</sup> ، وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا : اِحْمَلُونِي فَإِنِّي لَسْتُ مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ ، وَإِنِّي لَا أَهْتَدِي إِلَى الطَّرِيقِ . فَحَمَلَهُ بَنُوهُ عَلَى سَرِيرٍ مَتَوَجِّهًا إِلَى الْمَدِينَةِ . فَلَمَّا بَلَغَ التَّنْعِيمَ أَشْرَفَ عَلَى الْمَوْتِ فَصَفَّقَ يَمِينَهُ عَلَى شِمَالِهِ وَقَالَ : اللَّهُمَّ هَذِهِ لَكَ ، وَهَذِهِ لِرَسُولِكَ ، أَبَايَعُكَ عَلَى مَا بَايَعْتُكَ يَدُ رَسُولِ اللَّهِ

(١) سورة النساء ٩٧ .

(٢) اختلف العلماء في اسم هذا المهاجر واسم أبيه .

صلى الله عليه وسلم . ومات حميداً . فبلغ خبره أصحاب رسول  
الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : لو وافى المدينة لكان أتمّ أجراً .  
فأنزل الله تعالى فيه هذه الآية<sup>(١)</sup>

ومعنى الآية الكريمة أنّ من يهاجر في سبيل الله تعالى وَحْدَهُ  
لا شريك له وليس لأيّ غرضٍ من أغراض الدنيا ، من دار الكفر  
إلى دار الإيمان ، يجد بإذن الله تعالى في الأرض مراغماً كثيراً ،  
وَمُضْطَرَباً فيها ، ومذاهب عديدة ، وطرقاً متعدّدة ، كما يجد في  
مهاجره والمكان الذي هاجر إليه وتحوّل سَعَةً في المكان ، وفي  
الأمن والأمان ، وفي الحرّية وفي الرّزق وما إلى ذلك<sup>(٢)</sup> إنّ من يخرج  
من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثمّ يدركه الموت في طريق هجرته  
فقد وقع أجره على الله وثبت ثوابه عند الله تعالى . وكان الله تعالى  
غفوراً للذنوب ساتراً لها ، رحيماً بالمؤمنين ، حينما أرشدهم إلى  
معالم دينهم ، وإلى كلّ ما ينفعهم في الحياتين الأولى والآخرة .

---

(١) أسباب النزول ٢٠٨ وانظر تفسير ابن كثير ١/٥٤٣ وتفسير الطبري ٥/١٥١ .

(٢) انظر مثلاً لسان العرب : "رغم" .

في ضوء معرفة المراغم الكثير بأنه المضطرب في الأرض،  
والطرق المختلفة، والمذاهب المتعددة، أو الوسيلة، وفي ضوء  
معرفة السعة بأنه المهاجر، أو موضع الهجرة أو الغاية، فإننا نودّ  
أن نعرف المعاني المختلفة المتعلقة بلفظ المراغم حتى أفاد هذا  
المعنى في الآية الكريمة .

إنّا حينما نستشير معاجم اللغة وكتب التفسير نتبين أنّ  
لفظ المراغم ذو علاقة بالأصل اللغويّ : "رغم" وإنه بالنظر إلى  
لفظ الرّغم بتثليث الرّاء فيقال الرّغم والرّغم والرّغم يتبين أنّ له  
العديد من المعاني، منها الكره والرّغم والقسر والغضب والسُّخْط  
والذّلّ والهوان والخضوع<sup>(١)</sup> كما نتبين أنّ هذا الأصل اللغويّ "رغم"  
له علاقة بالمرغم والمرغم (بفتح الغين وكسرهما) بمعنى الأنف<sup>(٢)</sup> وله  
علاقة بالرّغام وهو التراب، والتراب اللين، ودُقاق التراب<sup>(٣)</sup>  
والذي يلفت النظر حقاً الاشتراك في الأصل اللغويّ بين المرغم  
والمرغم بمعنى الأنف، وهو رمز العزّة والأنفة والحميّة<sup>(٤)</sup> وبين  
الرّغام بمعنى التراب . وإنّ هذه العلاقة تذكّرنا

(١) لسان العرب : "رغم"

(٢) لسان العرب : "رغم"

(٣) لسان العرب : "رغم" ومفردات الرّاعب الأصفهانيّ : "رغم" ١٩٩ .

(٤) انظر مفردات الرّاعب الأصفهانيّ : "أنف" ٢٨ .

بالحديث النبوي الشريف : "رَغِمَ أنفه ثلاثاً ، قيل " مَنْ يا رسول  
 الله ؟ قال : من أدرك أبويه أو أحدهما حياً ولم يدْخُلِ الجنة. يقال :  
 أرغم الله أنفه أي ألزقه بالرَّغَام ، وهو التراب ، هذا هو الأصل ،  
 ثم استعمل في الذلِّ والعجز عن الانتصاف والانقياد على كُره (١)  
 في ضوء هذه المعاني المرتبطة بالأصل اللغويّ : "رغم"  
 ومشتقاته نستطيع أن نتبين الكثير من المعاني للفظ مراغم في قوله  
 تعالى: ﴿ وَمَنْ يَهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ﴾  
 ونستطيع أن نفهم معاني لا يستطيع غيرُ هذا اللفظ أن يفيدها ،  
 ويمكن أن يكون المعنى : ومن يهاجر في سبيل الله تعالى يجد في  
 الأرض التي يضرب فيها مراغماً كثيراً ، وطرقاً متعدّدة ، ومذاهب  
 شتى ، تؤدّي كلّها بإذن الله تعالى إلى السَّعةِ في المهاجر، والفسحةِ  
 في مكان الهجرة ، والاتساع في كلّ خير . وكأنّ هذا المهاجر في  
 سبيل الله تعالى حينما يطأ في طرق هجرته الرِّغَام بمعنى التراب ،  
 إنّما يطأ بعددِ خطواته أنوف أعداءِ الله تعالى ، ويضع مَراغِمَهُمْ  
 (بمعنى أنوفهم) في الرِّغَام وفي التراب ، ويُلْزِقُ

(١) انظر لسان العرب : "رغم" .

معاطسهم بِالْثَرَى ، ويهينُ كرامتهم ، ويذلُّ كبرياءهم .  
ولعلَّ في هذه المعاني الإضافية للفظ "مراغم" إيحاءً إلى  
الحكمة من استعمال هذا اللفظ بالذات في الآية الكريمة . والله  
أعلم .

## جملة «يستنكف»

جاءت هذه الجملة مرتين اثنتين في الآية الكريمة الثانية والسبعين بعد المائة من سورة النساء . قال تعالى : ﴿ لَنْ يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴾ كما جاءت في الآية الكريمة التالية قال تعالى : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ . ولم يأت الاستنكاف في القرآن الكريم في غير هاتين الآيتين الكريمتين فما معنى الآية الكريمة الثانية والسبعين بعد المائة ؟ المعنى : لن يأنف<sup>(١)</sup> ولن يمتنع<sup>(٢)</sup> المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام من أن يكون عبداً لله تعالى فكيف يغلو فيه أتباعه عليه السلام ، ولن يستنكف الملائكة المقربون فكيف يغلو فيهم مشركو العرب الذين يزعمون أنهم بنات الله تعالى . إن من يأنف ويمتنع عن عبادته جلّ وعلا ويستكبر عن التذلل له جلّ

(١) تفسير الطبري ٦ / ٢٦ ولسان العرب : "نكف" ومفردات الرّاعب الأصفهاني :

"نكف" ٥٠٦ .

(٢) لسان العرب : "نكف" .



وعلا فسيحشرهم جلّ وعلا إليه جميعاً يوم القيامة وسيثاب المحسن ويعاقب المسئ .

فما أصل الاستنكاف وكيف صحّ مجيئه توطئةً بين يدي الاستكبار؟ إنّنا حينما نعود إلى الأصل اللغويّ : "نكف" ننبين أنّ هذه الجملة مرّت بالمرحلتين الطّبيعيّتين اللّتين تمرّ بهما كلّ لفظةٍ في العادة ، وهاتان المرحتان هما على التّوالي المرحلة الحسيّة ، والمرحلة المعنويّة . إنّ جملة نكف في الأساس ذات علاقةٍ في المحسوسات بداء النّكاف ، وهو داءٌ يصيب النّكفة (بفتح الكاف) أو النّكفة (بسكون الكاف) وهما غدّتان تكتنفان الحلقوم في أصل اللّحي<sup>(١)</sup> واللّحيّ عظم الحنك الذي عليه الأسنان . والنّكاف أحد الأدواء التي اشتقت من العضو . وهو داءٌ يأخذ الإبل في حلوقها فيقتلها قتلاً ذريعاً ، والبعير منكوف ، والنّاقة منكوفة . ويأخذ الناس كذلك<sup>(٢)</sup> وقيل هما عقّدتان ربّما سقطتا من وجع الحلق فظهر لهما حجم<sup>(٣)</sup>

(١) لسان العرب : "نكف" .

(٢) لسان العرب : "نكف" .

(٣) لسان العرب : "نكف" .

وما الذي يلاحظ على من أصابه داء النكاف من الناس؟  
يلاحظُ عليه أنه يُضطرُّ لأن يرفع رأسه ويُرِي إحدى نكفتيه أو  
كليهما وكأنه يشمخُ بأنفه . إنَّ النكافَ وهو ورمٌ حسِّي ، يُعطي  
الإنسانَ مظهرَ المصعِرِ خدَّه للناس المميلِ نظره عنهم<sup>(١)</sup>

إنَّ الورمَ الحسِّيَّ في الحلق بسبب داء النكاف الذي يجعل  
صاحبه في صورةٍ من شَمَخٍ بأنفه ، وصعَّر خدَّه للناس ، قد يحُكُّ  
محلَّه ورمٌ نفسيٌّ غيرٌ منظور ، ولكن آثاره السيئة منظورة ، وذلك  
في اتِّخاذ المتغطرس هيئةً من أصابه داء النكاف فرفع رأسه، وشَمَخَ  
بأنفه ، وأرى الآخرين نكفته أو نكفتيه ، وصعَّر خدَّه للناس وتعالى  
عليهم وازدراهم . إنَّ هذا المتغطرسَ بسبب التشابه في الشكل  
بينه وبين من أصابه داء النكاف ، قيل في التعبير عنه : نَكَفَ  
يَنْكُفُ نَكْفًا عن كذا إذا أَنْفٍ منه وامتنع وعدل فهو ناكف ،  
ونَكِفَ يَنْكِفُ نَكْفًا عن كذا ومن كذا : إذا أَنْفَ منه وامتنع وتبرأ  
، وهذا كَلَّه في المعنويَّات ، كما يقال في المحسوسات : نَكِفَ  
الرَّجُلُ يَنْكِفُ نَكْفًا إذا سقطت نكفته من وجع الحلق فظهر لهما  
حجم<sup>(٢)</sup> ويقول ابن فارس في هذا

(١) انظر مفردات الرَّاغب الأصفهانيّ: "صعر" ٢٨١ .

(٢) انظر -مثلاً- لسان العرب "نكف" .

الشَّانُ<sup>(١)</sup> : "يقال : إِبِلٌ مُنْكَفَةٌ : فظهرت نكفاتها . ثم قيس على هذا ف قيل : نَكِفَ من الأمر واستنكف ، إذا أنِفَ منه . معنى القياس في هذا أنه لما أنِفَ أَعْرَضَ عنه وأراه أصلَ حَيْهِ ، كما يقال : أَعْرَضَ إذا وُلَّاهَ عَارِضَهُ<sup>(٢)</sup> وترك مواجهته . وَالْأَنِفُ من هذا ، كأنه شَمَخَ بِأَنْفِهِ دُونَهُ"

مما سبق يتبين أن المنكوف<sup>(٣)</sup> هو الذي أصابه داءُ النَّكَافِ في حلقه وورمت نكفته فرفع رأسه ، وشمخَ بِأَنْفِهِ اضطراراً . كما تبين أن المستنكف هو الذي أصابه الورم في نفسه فأخذ شكله في القُبْحِ والكِبْرِ والغرسة شكل الذي أصابه داءُ النَّكَافِ .

وبسبب الأنفة والامتناع اللذين أفادتهما جملة :  
﴿يَسْتَنكِفُ﴾ في الآية الكريمة حَسُنَ مَجِيئُهَا تمهيداً وتوطئةً لجملة يستكبر في الآيتين الكريمتين من سورة النساء . قال تعالى : ﴿لَنْ يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا . فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِمَّنْ قَضَىٰ لَهُ .

(١) معجم مقاييس اللغة : " نكف " ٤٧٩ / ٥ .

(٢) العارض : صفحة الحد .

(٣) انظر لسان العرب : " نكف " .

وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِّن دُونِ  
اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿ صدق الله العظيم . وصلى الله وسلم على سيدنا  
محمد وعلى آله وصحبه أجمعين . والحمد لله رب العالمين .

## الخاتمة

في الصّفحات السّابقة تألّفت المحاضرة بعنوان : " لمحات في إعجاز سورة النّساء " من شقين اثنين . الشّق الأوّل ارتبط ببعض الأمور ذوات العلاقة بالسّورة الكريمة من كونها من المدنيّ من القرآن الكريم الذي ارتبط به الأحكام ، وفي السّورة الكريمة أحكام الميراث ، ومجموعة من الأحكام تتعلّق بالضعفاء في مجموعهم وبالنّساء . هذا إلى استعمال التّقيير والفتيل ، وهما من متعلّقات النّوأة في مجال الكيل والوزن . والمعروف أنّ المدينة المنوّرة مشهورة بزراعة النّخيل . والشّق الآخر ارتبط بدراسة استعمالات السّورة الكريمة بعض الألفاظ والجمل في طريقة خاصّة بها . وكان ميدان الدّراسة القول على لسان اليهود عليهم لعنة الله تعالى خطاباً للمصطفى صلّى الله عليه وسلّم في قوله تعالى : ﴿ وَاسْمِعْ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعِنَا ﴾ وهم إنّما يريدون المعنى السيّئ لهذا القول . ولفظة ﴿مراغما﴾ من القول : ﴿ وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ﴾ وجملة ﴿يستكف﴾ في الآيتين الكريمتين الثّانية والسّبعين بعد المائة والثّالثة والسّبعين بعد المائة .

أسأل الله تعالى أن ينفع بهذا العمل ، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم ، وأن يتفضّل بقبوله إنّه جلّ وعلا نعم المولى ونعم النصير . وصلّى الله وسلّم على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين . والحمد لله ربّ العالمين .

## فهرست المصادر والمراجع

القرآن الكريم

ابن عطية

أبو محمد عبد الحق عطية الأندلسي (المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز . تحقيق وتعليق : الرّحالي الفاروقي ، عبد الله بن إبراهيم الأنصاري ، السيّد عبد العال السيّد إبراهيم ، محمد الشافعي صادق العناني . الطبعة الأولى . قطر ١٣٩٨ هـ ١٩٧٧ م .

ابن فارس

(أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريّا) مقاييس اللّغة . تحقيق وضبط عبد السلام محمد هارون . الطبعة الثانية ١٣٩٠ هـ ١٩٧٠ م حلي . مصر .

ابن كثير

(عماد الدّين أبو الفدا إسماعيل بن كثير) تفسير القرآن العظيم . دار إحياء التراث العربيّ . بيروت ١٣٨٨ هـ ١٩٦٩ م .

ابن منظور

(جمال الدّين محمد بن مكرم) لسان العرب . بيروت . ١٣٧٤ هـ ١٩٥٥ م .

أبو حيّان

(محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيّان)

- البحر المحيط . تصوير بيروت . بدون تاريخ
- الأصفهانيّ (أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانيّ) المفردات في غريب القرآن . تحقيق محمد سيّد الكيلاني ، دار المعرفة . بيروت . بدون تاريخ .
- الطّبري (أبو جعفر محمد بن جرير) جامع البيان في تفسير القرآن . الطبعة الأولى . بولاق . ١٣٢٩هـ
- الفراء (أبو زكريّا يحيى بن زياد الفراء) معاني القرآن . الهيئة المصريّة العامّة للكتاب ١٩٨٠م الطبعة الثانية .
- القرطبيّ (أبو عبدالله محمد بن أحمد الأنصاريّ) الجامع لأحكام القرآن . دار الشّعب . القاهرة بدون تاريخ .
- النّيسابوريّ (أبو الحسن علي بن أحمد الواحديّ النّيسابوريّ) أسباب النّزول . تحقيق السيّد أحمد صقر . الطبعة الثالثة ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م دار القبلة للثقافة الإسلاميّة . جدّة . مؤسّسة علوم القرآن . سوريا . دمشق . بيروت .

## فهرست الموضوعات

رقم الصفحة	الموضوع
٣	المقدمة
١٧-٦	الشقّ الأوّل
٣٦-١٨	الشقّ الآخر
١٩	﴿واسمع غير مُسَمَّع وراعنا﴾
٢٧	لفظة : ﴿مراغم﴾
٣٢	جملة : ﴿يستنكف﴾
٣٧	الخاتمة
٣٨	فهرست المصادر والمراجع
٤٠	فهرست الموضوعات